بسم الله الرحمن الرحيم

اللغة العربية ووحدة الأمة

أيها العلماء الأفاضل

حضرات السيدات والسادة

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد؛

فإنه لشرف كبير أن أرحب بكم في مجمعكم مجمع اللغة العربية الأردني في موسمه الثقافي التاسع والعشرين، وقد رأينا أن يكون في هذا العام أيضاً على هيئة مؤتمر يعالج قضية أساسية من قضايا أمتنا العربية تحت عنوان: "اللغة العربية ووحدة الأمة". ولا أذيع سراً إذا قلت: إن اختيار هذا الموضوع جاء من وحي الثورات السلمية التاريخية التي عمَّت الوطن العربي من أقصاه إلى أقصاه. وقد أجمعت هذه الثورات الجماهيرية على تحديد أهدافها فرفعت شعارات واحدة وموحدة بل وبلغةٍ عربية سليمة "الشعب يريد إسقاطَ النظام". إنها تنزع لاستعادة كرامتها المستباحة وحريتها المكبَّلة وتحقيق العدالة الضائعة والمساواة المرجوحة، ووسيلتها إلى ذلك الإطاحة سلمياً بأنظمة الطغيان والاستبداد وقتلة شعوبهم... تفجَّرت هذه الثورات الشعبية يحركها الشباب، بجماهيرها من مختلف الأعمار والشرائح الاجتماعية. فكانت براكين جارفة، أطاح بعضها حتى الآن بأنظمة الطغيان والاستبداد والفساد وقتلة شعوبها، وبعضها الآخر ما زال لهيبها محتدماً وأخرى تخبو نيرانها تحت الرَّماد...

تفجرت هذه الثورات العربية فيما بات يُسمى دولياً بالربيع العربي، وانتفضت الأمة العربية ولن تعود إلى حظائر سجَّانيها بسلاسلها وأغلالها، ولن يَقْدر أحد على تغيير مسار عجلة التاريخ. فالتاريخ، أيها السادة، علم وليس مجموعة أقاصيص وأخبار. وإن العمران البشري علم، وإن البحث في قوانين المجتمع

الإنساني وظواهره وحوادثه لهو علم تكاملت قوانينه، واستقرَّت أسسه وأركانه فيما يسمى في العصر الحديث "علم الاجتماع". وكان العلامة ابن خلدون في نهاية القرن الثامن وبداية القرن التاسع الهجري (القرن الخامس عشر الميلادي) هو الذي وضع أسس هذا العلم في مقدمته المشهورة، وسمَّاه "العمران البشري"... فاستحقَّ بذلك أن يكون بحق منشئ "علم الاجتماع"، وواضع أسسه.

وتتابع استقلال العلوم التي تبحث في النفس الإنسانية وفي فكر الإنسان وفي لغته، وفي مختلف شؤونه... فيما بات يُسمَّى بالعلوم الإنسانية، مثل علم النفس وعلم الاجتماع وعلم اللسانيات والإنثربولوجيا، بل وما نشأ من علوم حديثة تتناول اللغة ودورها في الحياة الإنسانية مثل علم النفس اللغوي وعلم الاجتماع اللغوي... الخ.

وإنه لمن البدهيات القول: إن العلوم، من حيث هي علوم، تحكمها قوانين وقواعد ومنظومات كونية، تعمل بمعزلٍ عن إرادة الإنسان ورغباته... مثال ذلك، فإن قانون الجاذبية الذي يقضي بأن الأشياء تسقط إلى أسفل، إذا تركت في الأجواء حُرَّة، وأنَّ ذلك يتم بمعزلٍ عن الرغبة في أن ترتفع إلى أعلى أو تنزاح يَمْنةً أو يَسْرة...!!

وكذلك العلوم الإنسانية جميعها... إنها تتصرف وفق قوانين ومنظومات ونواميس بمعزلٍ عن رغبات الإنسان، وقد تتدخل إرادته في إعاقة هذه الحوادث أو تَشْوِيهها والنيل منها أو محاولة تغيير مسارها وقد ينجح لبعض الوقت، ولكن لن يستطيع إيقافها لمدة طويلة أو القضاء عليها. وإن الفرق بين العلوم المادية (النظرية والتطبيقية) والعلوم الإنسانية (علوم الاجتماع والنفس واللغة... الخ) هو أن موضوع العلوم البحتة والمادية (النظرية والتطبيقية) هو الحادثة المادية، في حين أن موضوع العلوم الإنسانية هو "الحادثة الإنسانية"، وأن الفرق بينهما يكمن في أن الحادثة الإنسانية، حادثة معقَّدة، تدخل فيها عوامل يصعب حَصْرُها والتحكم

بها لأنها تتعلق بنشأته وبيئته ومكتسباته في الحياة وطباعه وأخلاقه وأحواله ومزاجه وظروف أخرى... الخ.

فكل ذلك يؤثر بشكل وبآخر في طبيعة استجابة الإنسان فرداً أو جماعة للمؤثرات... فقد يكون المؤثر واحداً واستجابة الإنسان نفسه مختلفة وذلك باختلاف الظروف والأحوال واختلاف الزمان والمكان...!!.

فإذا كان هذا هو حال الإنسان الفرد في استجاباته النفسية والاجتماعية والأخلاقية، فإنَّ حال المجتمعات البشرية أكثر تعقيداً... ولكنها جميعاً، وفي شتى الأحوال، تسير وتتطوَّر وفق قوانين ونواميس ومنظومات كونية، تعمل بمعزلٍ عن رغبات الإنسان وإرادته... وهذا ما نراه في ثورات الشعوب، وفي الثورات العربية حالياً، إذ تتفجر براكين وزلازل تحت أقدام المستعمرين الذين أسلموه إلى أنظمة الطغيان والاستبداد والقهر والفساد... وقد ثارت براكين بعضها وما زال بعضها الآخر تخبو نيرانها تحت الرماد... فهذه الثورات نتاج حتمي لتراكمات الماضي وأحداث الحاضر، من ظلم وقهرٍ واستبداد وفساد وإذلال وحرمان، وهي أيضاً نتاج العنف والمجازر والزج بالسجون والتعذيب واستباحة حقوق الإنسان. (وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ) (هود: 123).

يخطئ من يظن أن النتائج ستقطف حلوة يانعة غداة الثورات أو في القريب العاجل، فإنَّ التاريخ يخبرنا مثلاً: أن الثورة الفرنسية، على اختلاف زمانها ومكانها، احتاجت عدة عقود حتى استقرَّت أحوالها وأعطت ثمارها... ليس في فرنسا فقط بل وفي العالم أيضاً...!!

وفي الشأن العربي الحالي، فإن الزلازل المرتدة ستتوالى... وإن الاستعمار بأقنعته المختلفة وأدواته وتقنياته المتطورة وأنظمة الطغاة والفاسدين وأصحاب المصالح، لا يستسلمون للهزيمة بسهولة ويُسْر..!!

إن هوية الأمة العربية نسيج من لغتها (اللغة العربية السليمة) وعقيدتها، وإن وحدتها تتكامل بتاريخها وامتدادها الجغرافي المتصل ومصالحها المشتركة... وإن اللغة العربية التي نُعنى بها هي "العربية السليمة" العربية الفصيحة الجامعة الموحِّدة عبر القرون وعلى الامتداد الجغرافي، اللغة التي نزل بها القرآن الكريم وحياً إلهياً على قلب سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور. جاء الإسلام دعوة إنسانية موجهة إلى "الناس كافةً" إلى البشرية على اختلاف ألسنتها وألوانها وأجناسها، في إطار الحرية والعدالة والمساواة: "لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى" "والناس سواسية كأسنان المشط"، وقول الخليفة الصحابي عمر بن الخطاب رضي الله عنه متمثلاً جوهر تعاليم الإسلام: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا".

وتبلغ حرية الفكر في الإسلام ذروتها في آي القرآن الكريم عندما خاطب الكافرين "لكم دينكم ولي دين" وإرسائه القاعدة الأزلي ة في التسامح العقائدي بقوله سبحانه وتعالى: (لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ)(البقرة: 256)، وقوله عزَّ من قائل: (فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ، لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ، إِلاَّ مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ ، فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ). (الغاشية: 21- 24).

أيها السيدات والسادة:

ورب سائل يسأل، لماذا الوحدة العربية؟ ولماذا العربية الفصيحة؟ بل ولماذا تسمونها بالعربية السليمة؟ ولماذا تجعلون العربية الفصيحة لُحْمة في نسيج الثورات العربية التي تعمُّ الوطن العربي من الشام إلى اليمن ومن بغداد إلى مصر إلى طرابلس إلى تونس وإلى المحيط الأطلسي...!!

هذه أسئلة وغيرها كثير تتعلق بمصير الأمة العربية ومستقبلها وهويتها ووحدتها، تنتظر الإجابة عنها من علماء الأمة وحكمائها، وقد انحاز بعض العلماء

والمشاركين في هذا المؤتمر منذ البداية إلى جماهير أمتهم لإسقاط أنظمة التخلف والاستبداد والقهر والفساد، وبعبارة أخرى لاستعادة الأمة العربية كرامتها وحريتها في أوطانها...

أيها السادة

إن استعادة الأمة لغتها الجامعة، اللغة العربية السليمة، استعادةٌ لهوية الأمة العربية وتراثها... فاللغة السليمة تمثل جوهر وجودها وأساس نهضتها، فلا وجود لأمة عربية ولا لنهضة علمية أصيلة ولا لفكرٍ مبدعٍ بغير اللغة العربية السليمة (الفصيحة). ولا عجب إذا كان أعداء الأمة، من غزاة ومستعمرين وحاقدين، كانوا وما زالوا يستهدفونها بشتى الوسائل لإقصائها عن مجالاتها الحيوية وإحلال اللغات الأجنبية محلها لا سيما الإنجليزية في المشرق العربي والفرنسية في المغرب العربي في التعليم الجامعي، في جميع مجالاته ومستوياته وفي مؤسسات البحث العلمي ومؤسسات الدولة الاقتصادية والمالية وفي الإعلام لا سيما المسموع والمنظور ووسائل الاتصالات الحديثة، بل واستطاعت هذه السياسة اللغوية المعادية في الوطن العربي بعامة أن تتسلل إلى في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين إلى التعليم الأساسي والثانوي ولا سيما في المدارس الخاصة... بل وإلى رياض الأطفال.. وذلك في خضم سياسة خصخصة التعليم العام وإنشاء الجامعات الخاصة، وكذلك الجامعات الأجنبية، مخالفة لجوهر الدساتير العربية وقوانين التربية والتعليم...

إن استعادة كرامة الأمة العربية في جميع أقطارها وحقها في بناء نهضة علمية أصيلة ومعطاءة تقتضي بالضرورة التصدي للهجوم الشرس على اللغة العربية السليمة (الفصيحة) الهجوم الذي تفجَّر بصورة خاصة منذ ثمانينيات القرن الماضي مصاحباً حملات القمع الداخلية في بعض الدول العربية والحملات العسكرية الأجنبية والإقليمية حيث مسرحها الكبير كان منطقة الخليج العربي

واجتياح العراق الشقيق وسقوط بغداد في العاشر من نيسان 2003م، وقد استفحل هذا الهجوم الشرس في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، فيما بات يعرف باسم "العولمة" بمفهومها الأمريكي في الوطن العربي. فإذا كانت العولمة بمفهومها العام هي نتاج فلسفة قائمة على إزاحة الآخر واستلابه لغته وثقافته وأسلوب حياته، فإنها في الوطن العربي تهدف لاستلاب المواطن العربي لغته العربية السليمة (الفصيحة) اللغة الجامعة وثقافته العربية الإسلامية وجعله مواطناً معزولاً عن قيمه وثقافته الأصيلة، ومتلقياً ومستهلكاً للثقافة الغربية والأمريكية بخاصة، وإشاعة قيمها وعاداتها وطرائق حياتها... وقديماً قال ابن خلدون: " المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيِّه ونِحْلَتِهِ وسائر أحواله وعوائده".

إن هذه السياسات الثقافية العدائية كانت وما زالت تسير جنباً إلى جنب مع المشاريع الاستعمارية للحيلولة دون وحدة عربية أصيلة وفاعلة، وإن وسيلتها إلى ذلك تتمركز حول السيطرة على مناهج التعليم ووسائل الإعلام إلى جانب السيطرة الاقتصادية والإمعان في سياسة التجزئة في الوطن العربي وبث الخلافات بين الكيانات السياسية المصطنعة!!!

ويحتل المشروع الاستعماري الاستيطاني الصهيوني في فلسطين موقعاً متقدماً في سياسة الاستعمار البريطاني والفرنسي عقب الحرب العالمية الأولى، وموقعاً أساسياً في سياسة الهيمنة الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية حتى الوقت الحاضر.

وإنني في هذه الكلمة العجلى اكتفى بالقول، دون تحيُّز أو تعصب، وبمنطق العلم والوثائق: إن عوامل الوحدة الأصيلة بين الأقطار العربية، من حيث لغتها وعقيدتها بل وحضارتها العربية الإسلامية وتاريخها المشترك عبر القرون وامتدادها الجغرافي المتصل والمتكامل من الخليج العربي إلى المحيط الأطلسي، ومصالحها

المشتركة، وما تحمله شعوبها من أحاسيس أصيلة في التعاطف والتآزر، أقول: إن عوامل الوحدة هذه لا تتوافر في العصر الحديث من حيث الأصالة لأي أمة من الأمم بمن فيها الأمة البريطانية والأمة الفرنسية والأسبانية وغيرها من الأمم على الخريطة السياسية العالمية، وإن تاريخ صنع الوحدة الإيطالية والألمانية ليس بعيداً عن الذاكرة... أما الحديث عن عناصر وحدة الأمة في دول الأمريكتين وأستراليا فهو مختلف اختلافاً جوهرياً... وقد يصل الأمر إلى الحديث عن عبث تاريخي لا يخطئه فكر المؤرخ الناقد.

وأختم كلمتي هذه بالتساؤل:

كيف يمكن أن يقبل منطق التاريخ "وحدة الدول الأوروبية" في العصر الحديث، وينكرها أشد الإنكار على الأمة العربية، مع العلم أن الدول الأوروبية مثلاً تختلف فيما بينها اختلافاً جوهرياً من حيث لغاتها وثقافاتها وتاريخها، دون أن نتحدث عن علاقات العداء التاريخي بينها والحروب الدامية، الثنائية منها والعالمية، والتنافس الاستعماري والرأسمالي للهيمنة على الأمريكتين وأستراليا ونيوزلندا بعد اكتشاف العالم الحديث وعلى الشعوب الإفريقية والآسيوية ونهب ثرواتها... ومع ذلك كله تجدُ هذه الدول الأوربية أن مصالحها تقضي بإنشاء وحدة اقتصادية بل ووحدة سياسية وعسكرية... كي تواجه الظروف الدولية في القرن الحادي والعشرين!!! وها هي الدول الغنية منها تهبُّ لنجدة الدول المنهارة اقتصادياً.

"والله غالب على أمره".

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

رئيس مجمع اللغة العربية الأردني

الأستاذ الدكتور عبد الكريم خليفة